تدوين الفوائد .. فنون ومهارات

بقلم : وضاح بن هادي

http://saaid.net/Doat/wadah

لا يختلف اثنان أن عصرنا يمكن أن نسمه بعصر العلم، عصر المعرفة،

وإن شئت فقل عصر الثورة المعلوماتية، أو قل عصر الانفجار المعلوماتي ..

وهذه المسميات كلها ذات دلائل

حينما نقول (عصر الثورة أو الانفجار المعلوماتي)، فهو يعني التدفق الهائل الذي سال كالسيل على البشرية، إضافة إلى أن هذا السيل تعددت وسائله ومشاربه، فلم تعد المعلومة تأتينا من مصدر أو مصدرين، بل أضحينا نتلقاها من مصادر لا تعدّ، أيضا هذا الكم الهائل من المعرفة هو متسارع التغيرات، فمعلومة اليوم قد تنقضها معلومة الغد ..

أمام هذا الانفجار احتار الإنسان فحاول أن يتدارك ما يمكن تداركه من خلال الكتاب والتدوين والطباعة والرسم، ومن قبل الحفر، واليوم أضحينا نسمع بالماسح الضوئي والاسكنر... إلى غيرها من الوسائل ..

لماذا هذا؟

بهدف أن يحتفظ الإنسان بالمعلومة ويُحافظ عليها من الضياع وينشرها لجيله والأجيال من خلفه ..

بعد هذا نقول : أن التدوين (تدوين الفوائد) يختلف عن التلخيص، يختلف عن الاختصار، يختلف عن التهذيب، يختلف عن الترتيب، وهذه كلها ألوان ومهارات لفنّ

الكتابة، وهناك أيضا كتابة المقال، وكتابة الشعر، وكتابة الخطبة، وكتابة الخاطرة، وكلّ هذه أيضًا أنواع لفنّ الكتابة ..

ولو أردنا أن نفرّق سريعا بين التلخيص والاختصار والتهذيب والترتيب

، فنحن نسمع (مختصر منهاج القاصدين)، ونسمع (تهذيب مدارج السالكين) ..

باختصار :

التلخيص والاختصار مفردتان مترادفتان، فحينما تعمد للتلخيص فأنت تأتي للنص الأصلي وتحاول أن تختصره بعبارة أو جُمَل أقل، ولذا يقولون في تعريفه : هو (إقلال دون إخلال)، وهذا يعني أنك حينما تختصر أو تلخّص كتابا أو محاضرة فهو لا يعني أن تعبِّر عن قناعاتك أو أفكارك، وإنما هو إعادة صياغة للنص الأصلي صياغة جديدة ..

أما التهذيب والترتيب وهما أيضا مفردتان مترادفتان فهو يعني أن تأتي للخطبة أو الكتاب أو النص عموما وتلخِّصه بما يخدم هدفك ثم تهذبه،

وألوان التهذيب كثيرة، إما بإضافة زيادات كتحرير مسألة، أو استدراك نصّ معين، أو تخريج حديث، أو زيادة ترجمة يكون المؤلف الأصلي قد نسيها أو افتقرها ..

بعد هذا ندلف إلى لب موضوعنا؛ وهو تدوين الفوائد ..

قال الأول :

العلم صيدٌ والكتابة قيده .. قيّد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الجهالة أن تصيد غزالة .. وتتركها في البرية طالقة

فمن أول ما يوصي به العلماء طلبتهم : هو تقييد العلم

وهذا مما يروى عن الشيخ ابن باز رحمه اللّه أنه كان يوصي طلابه ومن يزورونه بتقييد العلم، بل كان من قول الشعبي : "إذا سَمِعْتَ شيئا فاكتبه، ولو في الحائط"

ويُقال : أن "من كتب فقد قرأ مرتين"

بل يروى عن بعضهم أنه قال : "لا يُعرف كتاب طالب العلم حتى يُظلّم بياضه" ..

والإنسان كثيرا ما يعتدّ بذاكرته، فتمرّ عليه المعلومة أو الفائدة فيطير بها، وكم ساعة وإذ هو في حسرة من أمْره، أنه لم يسجّلها أو يقيّدها ..

بل يروى عن الشيخ الأديب علي الطنطاوي ندمه الشديد أنه لم يدّون مواقفه وأفكاره وأعماله في بداية حياته، فيقول : "أنني كنتُ واثقا من ذاكرتي فلم أستودع الورق ما قد تضيعه الذاكرة"، لكنه قال بعد ذلك : "فلما احتجتها، جئتُ أدوّنها، فإذا أنا قد نسيت ما كنتُ أحفظه" ..

والتدوين هذا قد يكون وأنت تقرأ، وهذا من محفّزات الاستمرارية في القراءة، فحينما تصحب القلم معك وأنت تقرأ، فهذا يجعلك متحفّزا لتدوين نفائس ما تقرأ، وهذا أيضا يولّد لديك المتعة مع ما تقرأ ..

وابن القيم له كتاب {الفوائد}، وله {بدائع الفوائد}، وللزركشي كتاب نفيس أسماه {خبايا الزوايا}، وابن عثيمين له كتاب {المنتقى من الفوائد}، وكتاب عبد السلام هارون {كُنَّاشة النوادر} أو {كُنَاشة النوادر} الذي جمع فيه نفائس ونوادر وغرائب من عشرات الكتب والمخطوطات خلال نصف قرن، يقول : جمعت فيه نحو ثلاثة آلاف مذكّرة هي رؤوس المسائل – وهذه ستأتي معنا - ..

أيضا وأنت تسمع، تسمع محاضرة، تسمع درس علمي، تحتاج إلى التدوين، ويُقال أن كتاب النحو الشهير {أوضح المسالك} لابن هشام، كتبه طلابه من خلال سماعهم الدرس، وكذا كتاب {الشرح الممتع} للشيخ ابن عثيمين ..

وأيضا تحتاج التدوين للخاطرة، (خواطر الذهن) ليس لها وقت، وابن الجوزي ألف كتابه {صيد الخاطر} ..

وهناك أيضا تدوين الرحلات، والشيخ العبودي الرحّالة ألف ما يربو عن ١٨٠ كتابا تدور كلها حول رحلاته وأسفاره ..

وهناك لون من التقييد ، وهو تقييد القدوات، وأعمال القدوات، يقول أبو الفرج ابن الجوزي عن شيخه أبي البركات : "كنت أقرأ الحديث عليه، وهو يبكي، فاستفدت ببكائه أكثر من استفادتي بروايته".

- والآن لو أردنا أن نطرح آليات لتقييد هذه الفوائد؛

يجب أن نقول أولا : أنّ كلّ من كتب في هذا الباب؛ فهو يحكي عن تجربة شخصية. فهناك طرائق يستخدمها هذا، غير التي يستخدمها الآخر.

ثانيا : مهم جدا؛ قبل أن تقرأ كتابا، أو تسمع شريطا، أن يكون لديك دافع أو هدف وراء ما تودّ قراءته أو سماعه، وحتى تحدّد الهدف تحديدا دقيقا؛ يمكن أن تسأل نفسك مجموعة من الأسئلة؛ عن ماذا يتكلم هذا الكتاب؟ أو عن ماذا سيتحدث هذا المحاضر؟ ما غايتي من سماعي لهذه المادة؟ أو حضوري لهذه المحاضرة؟ وهل ما سأقتنصه من فوائد ، هو لذاتي؟ أم لنقله لغيري؟

فالذي يكتب لذاته، غير الذي يكتب لغيره ..

- أما عن مكان التقييد أو التدوين؛

فهناك مدارس كثيرة في هذا ..

١- فهناك من يكتب في طرّة الكتاب (الصفحات البيضاء في أول الكتاب)؛ فيكتب رقم الصفحة ورأس المسألة أو الفائدة ..

٢- وهناك من يكتب على حواشي الكتاب، ويُحرص هنا أن تكون الكتابة واضحة لكنها رقيقة، حتى لا تؤثّر على الصفحات الخلفية،
ويروى عن أبي حنيفة رحمه اللّه أنه رأى أحدهم يكتب ويصغّر خطه، فقال له : "لا تقرنط خطك، فإنك إن كبُرتَ تندم، وإن متَ تشتم".

٣- وهناك من ينقل الفوائد مباشرة في دفتر أو ملف خارجي، ويحسُن هنا أن يكون لكل فن دفتر خاص ..

وجميل أن تكون مثلا تقاسيم الدفاتر كالتالي : الفوائد الفقهية – الفوائد العقدية – الفوائد الحديثية – الفوائد الأصولية – الفوائد الأدبية – الفوائد التربوية والإيمانية – النوادر والغرائب... الخ.

وهذا يعينك على المدى البعيد كثيرا حينما تبحث موضوعا، أو تودّ أن تتحدّث في موضوع، فيسهل عليك العودة لذات القسم أو المجال، وتبحث من خلاله ..

- وبعضهم ربما قسّم دفاتره على أسماء الكتب، فكل كتاب قرأه وضع له دفتر خاص، ويكتب في هذا الدفتر أيضا تاريخ البدء والانتهاء من قراءة الكتاب، ويكتب أيضا طبعات الكتاب إن كانت له أكثر من طبعة.. وهكذا.

- وربما نقل الفوائد في كروت أو قصاصات مقوّى – معروفة - ، ثم يدبّسها في ذات الكتاب ..

وأعرف من طلبة العلم من جمع أكثر من ١٤ ألف كرت، دوّن فيها فوائد ما قرأ.

وهناك من يستخدم وسائل ومهارات حديثة؛ كالخرائط الذهنية، أو التشجير، ونحوها، وهي نافعة ومفيدة، خاصة وأنها تدرّب القارئ أو السامع لأن يختصر كتابا كاملا في صفحة واحدة أحيانا ..

- يمكن بعد هذا من نقل هذه الفوائد إلى جهاز الحاسوب، وهذا يسهّل عليك العودة إليها متى شئت، ويسهّل عليك أيضا التعديل والتصويب لأي معلومة لاحقا ..

- ويمكن أيضا وهذا من الثمار الطيبة من جرّاء التدوين، أن تسعى في نشر هذه الفوائد عبر وسائل التواصل، أو مدوّنة خاصة بك، أو حتى مؤلف ينفع الله به ..
- ومن الطرائف في هذا؛ أنّه يروى عن الشيخ {محمد إسماعيل المقدم} أنّه حضر لطلابه مرة في إحدى محاضراته ومعه {صندوق كرتوني} ، ثم فتح الصندوق – وأخبر أن له فترة لم يفتحه – وقال : دَرْسُنَا هو ما يخرج لنا من هذا الصندوق. يقول أحد طلابه : "و كان فيه العجب العُجاب من الفوائد التي لو ضُربت إليها أكباد الإبل لما كان مستكثرا عليها".

أما ماذا أكتب؟ وماذا أدوّن؟ وماذا أترك؟

فهناك أيضا في هذا مدارس كثيرة ..

١- من تلك المدارس؛ من ينهج نهج تقسيم الورقة أو الصفحة التي ستدوّن فيها إلى ثلاث :قسم معلومات، وقسم بحث، وقسم تطبيق، ففي القسم الأول تدوّن ما مرّ عليك من معلومة أو قصة أو إحصائية أو مسألة جديدة، وفي الثاني تدوّن ما مرّ عليك من معلومة أو مسألة أو حديث أو إحصائية وتحتاج إلى مزيد بحث

وتثبت، وفي القسم الثالث – وهو أهم قسم – تكتب فيه ما انقدح في ذهنك من مشروعات أو أفكار أو توصيات تحتاج إلى تطبيق.. هذه مدرسة.

٢- هناك مدرسة أخرى تدعو لتقسيم الصفحة أيضا إلى ثلاث : قسم الزوائد النادرة والأشياء العجيبة، وقسم لما فهمته أنت من الكتاب مما ليس فيه، وقسم للإشكالات؛ ففي الأول تكتب النوادر والغرائب مما مرّ عليك لأول مرة، وفي الثاني تكتب ما يُسمّى بالقراءة ما بين السطور، تكتب ما استفدته مما قرأته الآن، وتصيغه بأسلوبك، وتربطه مع ما قرأته من قبل، وفي الثالث تكتب الإشكالات، وهذه الإشكالات طبيعية، لأنها ممكن تكون ناشئة عن أخطاء مطبعية، أو ناشئة عن أخطاء من المؤلف نفسه، أو ناشئة عن عدم فهم منك أنت .. وهكذا، فتحتاج إلى تقييد هذه الإشكالات للرجوع إلى مراجع أوسع إن كان بإمكانك، أو تسأل فيها أهل العلم.

٣- وهناك مدرسة ثالثة (جميلة)؛ تشير إلى أنك تختار لك كتابا في كل فنّ يُعدّ هو الأصل أو الجامع لمسائل ذلك الفنّ، وكلّما صادفت زيادة في كتاب آخر دوّنته في هامش ذلك الكتاب الأصلي ..

بعد هذا التطواف؛ فإني انبهك إلى التالي :

أولا : أن لا تتّكل على أنك قد قرأت الكتاب الفلاني وكتبت فوائده، وتحسب أنك قد سبرتها أو حفظتها، وهذا يدعوك إلى الاتكال وعدم العودة إلى ما قرأت مرة أخرى، وهذا غير صحيح ..

ثانيا : أحيانًا ربما تدخل في قراءة كتاب، وتخرج منه كأنك دخلت فيه، وهذا طبعا يدعوك إلى عدم اليأس، بل هي دعوة للتكرار لذلك الكتاب إنْ كان عمدة، أو اختيار غيره إن كان هناك أفضل منه، والتكرار بالنسبة لما تقرأ أو تسمع مهم جدا، فهو كما

أنه يقوّي من تثبيتك للمعلومة، فهو أيضا يملّكك ملكة الاستنباط للفوائد واقتناصها، واليوم ربما تقرأ هذا الكتاب وتقتنص منه فوائد ما، ثم بعد توسّع في القراءة وتكرار تجد أن إدراكك واستنباطك للفوائد ارتقى وتطوّر ..

ولذا كثر عن أهل العلم جانب التكرار؛ يُروى عن أحدهم أنه قرأ كتاب الأغاني ١٣ مرة، ويذكر ابن رجب في طبقات الحنابلة عمن ترجم لهم؛ أنه قرأ كتاب المغني ٢٣ مرة .. ويقينا أنه في كل مرة يقرأ تختلف قراءته عن قراءته السابقة..

ونحن لماذا نقول هذا؟ لأن كثير من طلبة العلم المبتدئين خاصة ألهاهم التكاثر، وكل همّهم كم قرأ، وكم جمع ..

ولذا أختم بقولة جميلة لمحمد بن يسير الرياشي يقول فيها :

أما لو أعي كلّ ما أسمع --- وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمعت --- لقيل هو العالم المقنع
ولكنّ نفسي إلى كلّ نوع --- من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت --- ولا أنا من جمعه أشبع
وأحضر بالعيّ في مجلس --- وعلمي في الكتب مستودع
فمن يَكُ في علمه هكذا --- يكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً --- فجمعك للكتب ما ينفع

والله أعلم

وصلى الله وسلّم على نبينا محمد